ناجيه عاقل مراني

الحب بين تراثين

التروبادورز الفرنسيون والعشاق العذريون

٤
الرجـل
دراسة مقـارنة

حين نكتب عن الحب (*) ونتحدث عن دور المرأة فيه ، فنحن نفعل ذلك بوحي مما قاله الرجل . فالرجل هو الصوت الذي نسمع من خلاله همسات الارواح وخفقات القلوب ، هو المنعم والمتنعم ، ينصب المرأة ملكة وينتظر ان تهبه ما تملك ، يتعبد في محرابها وينتظر ان تدخله الجنة ، وهو في انتظاره وفي تعبده ودموعه واصطباره ، في لحظات صفائه وليالي شقائه ، يغني فتغني معه البشرية . هو شاعر يحول الاهات والدموع والبسمات الى قصائد تخلد فتمنحه الخلود . ان ما ذكرناه في معرض حديثنا عن ازدواج طبيعة الحب ، لنابع من طبيعة استجابة الرجل ومن مواقفه تجاه ذلك الحب ، وتلك الاستجابة ذات جانبين يتمم احدهما الاخر . فجانب يتمثل في رغبة الرجل لامتلاك المرأة جسديا ، وجانب يتمثل في السمو عن «لذات الجسد(١). والجانبان كلاهما وارد في التراث الاوربي وفي التراث العربي الذي سبقه .

اما الجانب الجسدي فتكشف عنه اقوال المحبين في تصوير جمال المرأة كما رأينا . فالجمال سبب الحب وداعيه الاول ، اذ يخلب لب الرجل سهم من عيني امرأة جميلة ، وتسحره ابتسامة من شفتيها. يقول التروبادور غليوم دي كابستانغ في هذا المعنى :

حين رأيتك لاول مرة ، او حين سمحت لي ان اراك يا سيدتي ، نسيت ما كان من امري ، اذ علقت رغباتي كلها فيك ، وتمكن الشوق من قلبي بابتسامة حلوة ونظرة ، فجعلني انسى كل ما هو كائن عداه . (٢)

اما بيرول فهو يعرب عن المعنى نفسه حين يقول :

لقد غمرني السرور وانا انظر اليها لاول مرة ، وما كان باستطاعتي ان استعيد القلب الذي سلبته ، فقد كان معها منذ ذلك الحين وما زال . (٣)

وهناك تروبادور يتشكى من عدوين تآمرا للقضاء عليه هما قلبه وعينه ، فعينه رأت وقلبه هوي كما يقول :

شريران قد تآمرا ضدي وهما يعملان ليل نهار للقضاء علي هذان العدوان هما قلبي وطرفي ، فقد جعلاني اشتهي التي ليست لي . (٤)

ويتناول جوسر هذا المعنى فيخبرنا ان نظرة كرسيدا قد اثارت الحب والرغبة في قلب تروبلس ، وطبعت فؤاده بطابع الهوى الذي لا يزول . يقول جوسر :

And of hire look in him then gan to quyken,
So gret desir and swishe affecciоun
That in his hertes botme gan to sticken
of hir his fixe and depe impressioun .
(I, 225-28)

وحين كتب اندريس كتابه عن الحب اشار الى تلك الحقيقة فقال: « يحدث غالبا ان الحب يتمركز في القلوب نتيجة النظرة الاولى » . وذكر في مكان اخر من الكتاب : « حين يبصر الرجل المرأة اللائقة بحبه والمصورة كما يتطلب ذوقه ، يشتهيها قلبه في الحال . » (٥)

هذا بعض ما ورد في التراث الاوربي عما يسببه النظر الى المرأة الجميلة من اثارة للشوق والرغبة في قلب الرجل . اما في التراث العربي ، فعلى الرغم من وجود ما يشير الى ان بعض قصص الحب بدات والعاشقان صغيران ، الا ان معظم الروايات ، ـ وحتى ما يتعلق بمجنون ليلى نفسه ـ تشير الى ان الرجل يرى من هي اجمل النساء واظرفهن فيعلقها قلبه . (٦) والشعراء العشاق يحدثوننا عن سهام العيون التي تجرح وتدمي الافئدة . وقد تناولت اشعارهم في هذا الباب المعاني التي وردت في الشعر الاوربي فيما بعد ، فجميل يذكر ان بثينة قد اسرت فؤاده بنظرة وابتسامة حيث يقول :

صادت فؤادي بعينيها ومبتسم كانه حين ابدته لنا برد

ويتحدث عن السهم الذي ادمى القلب من غير ان يترك اثاره على الجلد ، فيقول :

(*) راجع القسمين الاول والثاني من هذه الدراسة في عددي « الاداب » الماضيين .

(١) Lewis , op. cit . , 18, Singer , op. cit ., 129 .
(٢) Kirby , op . cit , 293 .
(٣) Tbid ., 294 .
(٤) Valency , op . cit ., 152 .
(٥) Andreas , op. cit ., 29 .
(٦) الاصفهاني ، ٧ ، ١٤٥ ، ٨ ، ٧١ ، ١ ، ٨٣ ، ٢٠ ، ٢١٩ .

رمتني بسهم ريشه الكحل لم يضر
ظواهر جلدي فهو في القلب جارحي (٧)

ويخبرنا العباس بن الاحنف عن النظرة التي كانت فاتحة بلائه وسبب شقائه فيقول :

ومستفتح باب البلاء بنظرة
تزود منها حسرة اخر الدهر
فوالله ما يدري اتدري بما جنت
على قلبه ، او اهلكته وما تدري (٨)

ويتحدث الشاعر نفسه عن سهام العيون التي خلفت القلب جريحا واورثت الجسد السقام فيقول :

ايا لك نظرة اودت بقلبي وغادر سهمها جسمي جريحا
فليت امرتي جادت باخرى فكانت بعض ما ينكا القروحا
فاما ان يكون بها شفائي واما ان اموت فاستريحا (٩)

اما ابن زيدون فيخبرنا عن النظرة التي كانت على موعد مع الموت ، اذ انها علمته كيف يحب وكيف يموت من الحب :

اما الضنى فجننه لحظة عنن كانها والردى جاءا على قدر
فهمت معنى الهوى من وحي طرفك بي
ان الحوار لمفهوم من الحور (١٠)

ويحدثنا الشاعر العربي كصاحبه الاوربي ، عن العدوين اللذين يتآمران على حياته فيتلفانها ، اذ يقول :

انا ما بين عدوين هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى القلب والمقصود حتفي (١١)

ويفرد ابن حزم الاندلسي بابا من كتابه وهو (باب من احب من نظرة واحدة) يقول في مستهله : « وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . » (١٢) وحين يلصق الحب بالقلب، تتاجج فيه الرغبة والشوق الى الحبيب ، ويعبر العشاق عن اشواقهم باكين ساهرين ، ومتطلعين الى فرصة اللقاء التي تبل الاكباد وتشفي الافئدة. يقول التروبادور بالازول ان الشوق الى المرأة التي يحبها قد طغى واستحوذ عليه فلم يعد يأبه للابتسامة الحلوة والظرف واللياقة والتعقل ، لانه طامح ومتطلع الى المزيد :

الحكمة واللياقة والظرف والابتسامات الحلوة ، هذه الاشياء التي كانت تجد لها مكانا في قلبي ، لم تعد تسرني كثيرا ، ما لم تتعطفي فتقبليني قبل ان اموت من الشوق الذي يهاجمني ويطغي. (١٣)

وبرنارد يخبرنا ان الشوق يكاد ان يقتله ، اذ يجسم له ملذات الهوى في حين ان نوالها ليس بالمؤكد ، فهو يقول :

شوقي العارم يقتلني ، انه يجسم لي متع الحب المغرية
ولا يراعي ان كان الحبيب سيوليها نظرا ام لا . (١٤)

ويصرخ الشاعر مستغيثا متوجعا من حرقة الشوق فيقول : « اواه ، ها اني اموت من الشوق . » (١٥) ثم يسأل حبيبته قبلة واحدة لعلها تطفىء النار المتأججة في حشاه :

يا سيدتي الجميلة الطيبة ، هل من مناسبة تمنحينني بها قبلة واحدة ، ان لم تكن من اجل شيء ، فلاني متشوق جدا . (١٦)

وان نحن عدنا الى تراثنا العربي لوجدنا اشياء مماثلة قد قيلت . فجميل يشكو الظما اللاهب الذي لا يبله الا ريق الحبيبة ، فيقول :

الا فاعلمي يا عذبة الريق انني ابيت اذا لم اسق ريقك صاديا (١٧)

ويصور جميل في مكان اخر صورة من الصحراء تعبر عما يقاسيه من حرارة الشوق ومرارة الحرمان فيقول :

وما ضاريات حمن يوما وليلة على الماء يغشين العصيّ حواني
لواغب لا يصدرن عنه لوجهة ولا هن من برد الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونه فهن لاصوات السقاة رواني
باكثر مني غلة وصبابة اليك، ولكن العدو عداني(١٨)

اما كثير فيحدثنا عن ديونه المطولة ابدا ، وعنائه في انتظار الحبيبة التي ابت الا المماطلة . ونعلم من رواة الاخبار ان تلك الديون لم تكن سوى قبلة كانت عزة قد وعدته بها . يقول كثير :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها
فهل تجزيني عزة القرض بالهوى
ثوابا لنفس قد اصيب صميمها (١٩)

ويخبرنا ابن الاحنف ان شوقه قد بلغ مدى لا يعلمه الا الله ، ثم يستصرخ الحبيبة طالبا الرحمة بل الغلة ، فيقول :

واشتاق ، فلا يعلم الا الله ما القى
الا من يرحم الظمآن يستسقي ولا يسقى (٢٠)

هذا الحب والشوق والرغبة مع الحرمان ، كلها اسباب داعية الى كآبة المحب وغمه وسهره ودموعه وفقدان رشده وغيرها من علامات ومظاهر شائعة بين المحبين في الغرب والشرق معا ، نتيجة لما يلاقون في حبهم وما يقاسون من بعد وحرمان . يقول برنارد واصفا الامه وسهده :

لا اعرف كيف افر من هذه الافكار المؤلمة التي تنتابني وتجعلني اجافي رقادي، فاقضي الليل اتقلب على سريري او ادور حوله (٢١) .

ويمضي برنارد فيصف آهاته ودموعه والامه قائلا :

اناوه وابكي من قلبي ، فحبها غرس الالام في صميم روحي . (٢٢)

ويخبرنا الشاعر نفسه ان ما قاساه في الحب لم يسبق لغيره من العشاق ان لقي مثله ، فيقول :

لقد تحملت الكثير من آلام الحب ، وقاسيت اكثر مما قاساه تريستان في حب ايسولت الشقراء . (٢٣) .

اما الام ترويلس ودموعه وسهره ومرضه فعلامات ميزته وجعلته في عداد مشاهير العشاق كمن سبقه ، يقول جوسر واصفا حال ترويلس بعد ان رماه سهم الحب فاصابه :

And fro this forth tho refte hym love his slep ,
And made hym mete his foo and ek his sorwe
Gan multiplie , that , whoso tok hep ,
It shewed in his hewe both eve and morwe .
(I, 484-87)

ويشترك العشاق جميعا بتصوير انفسهم وكانهم اسرى او كان حبائل نصبت فاصطادتهم ، فجوسر يجعل بطله ترويلس يلوم نفسه، تلك النفس الحمقاء التي اوقعته بالمصيدة وقيدته بقيود الحب التي

---

(٧) ديوان جميل بثينة ، ٤٠ ، ٢٣ .
(٨) ديوان ابن الاحنف ، ١٦٦ .
(٩) ديوان ابن الاحنف ، ٩٤ .
(١٠) ديوان ابن زيدون ، ١٥ .
(١١) روضة المحبين ، لابن قيم الجوزية ، ١١٠
(١٢) ابن حزم ، المصدر المذكور ، ٢ .
(١٣) Newcombe , op . cit . , 63 .
(١٤) Bernard , op. cit ., 115 .
(١٥) Ibid ., 174 .
(١٦) Ibid ., 123 .
(١٧) ديوان جميل بثينة ، ١٢١ .
(١٨) ديوان جميل بثينة ، ١١٠ .
(١٩) البغدادي ، المصدر المذكور ، ٢ ، ٣٨٢ .
(٢٠) ديوان ابن الاحنف ، ١٧ .
(٢١) Bernard , op . cit . 21
(٢٢) Ibid ., 134 .
(٢٣) Ibid ., 171 .

لا يستطيع الفكاك منها ولو عذله جميع الناس :

He seyde , O fool , now artow in the snare ,
The Whilom japedest at love feyene !
Now artow hent , now gnaw this owen cheyne !
Thow were ay wont ech lovere reprehende
Of thing from which thou kanst the nat defende .
(1.305-10)

وبرنارد يتغنى في حب المرأة التي صنعت سجنه واورثته الالم ، فيقول :

اعانق حبها الذي اسرني ، واتغنى من اجلها ، تلك
التي صنعت سجني الرهيب . (٢٤)

ويقارن برنارد نفسه بسمكة دفعها حمقها الى الوقوع في شبكة الصياد فيقول :

كسمكة دفعها الطيش والحمق الى الطعم ، فما شكت بشيء
حتى علقت بالشص ، هكذا تركت نفسي ولم احذر
حتى رايتني في لهب يحرقني ، كاقوى ما يكون عليه لهيب . (٢٥)

ويؤكد المحبون ان الام الحب مهما قست ، وصبرهم مهما طال ، فهم لا يتخلون عن حبهم ، ولا يريدون الفكاك من اسرهم ، فيقول برنارد :

لن اتخلى عن الحب مهما اقاسي من آلام ومهما اتحمل من مصائب . (٢٦)

ويتحدث بالازول الى الحبيبة فيخبرها انه راض باسره ، ولن يدفع الفدية ليخرج ، اذ هو يفضل البقاء سجينا :

لقد اسرتني ، ومع هذا فلا تطمعي يوما بفدية ، لاني
افضل ان ابقى اسيرك ، ولو اني ما عرفت قبلي
اسيرا لا يصبو الى الحرية . (٢٧)

هذه المعاني والصور التي احتواها التراث الاوربي لها ما يماثلها في تراثنا العربي ، فالعاشق ـ كما صوره لنا التراث ـ يقاسي آلام الحب واوجاع الشوق وتباريحه ، واصفا لنا آهاته ودموعه وسهره وسقمه ، ومصورا السجن والاسر والقيود التي يكابدها ، والتي لا يهوى مفارقتها ، تماما كما يفعل العاشق الاوربي . فقيس بن ذريح يقول في ابيات من قصيدة له شاكيا وذاكرا ما يلقى في سبيل لبنى :

نهاري نهار الناس حتى اذا بدا
لي الليل هزتني اليك المضاجع
اقضي نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعني والهم بالليل جامع
وللحب آيات تبين بالفتى
شحوب وتعرى من يديه الاشاجع
وجانب قرب الناس يخلو بهمه
وعاوده فيها هيام مراجع
كان بلاد الله ما لم تكن بها
وان كان فيها الخلق ، فقر بلاقع (٢٨)

وجميل بن معمر يصف لنا حرقه وزفيره ، ويتحدث عن سهره ودموعه ، وهو في كل ذلك يتوجه الى الله شاكيا اذ عجز عباد الله عن الاستجابة الى شكواه ومساعدته على بلواه ، فيقول :

الى الله اشكو ما الاقي من الهوى
ومن حرق تعتادني وزفير
ومن كرب للحب في باطن الحشا
وليل طويل الحزن غير قصير
سابكي على نفسي بعين غزيرة
بكاء حزين في الوثاق اسير (٢٩)

ويتحدث جميل عن حبائل بثينة التي صادت فؤاده ، وعن حبائله هو التي اخطأت الهدف فتركت الحبيبة طليقة ، فيقول :

صادت فؤادي يا بثين حبالكم يوم الحجون ، واخطأتك حبالي (٣٠)

ويقول في مكان اخر مقارنا اسره في الهوى باسر ذلك الذي اقتيد ويداه مغلولتان اذ ان كلا منهما لا حول له ولا هو قادر على دفع الاذى عن نفسه . يقول جميل :

الا قاتل الله الهوى كيف قادني كما اقتيد مغلول اليدين اسير (٣١)

وجميل اذ يذكر العشاق الذين قضوا وجدا من قبله ، يجد ان هواه قد فاق هواهم وصبابته قد تعدت حدود صبابتهم ، فهو يقول :

قد مات قبلي اخو نهد وصاحبه مرقش واشتفى من عروة الكمد
وكلهم كان من عشق منيته
وقد وجدت بها فوق الذي وجدوا (٣٢)

اما المجنون فيشبه هلع قلبه وذهاب لبه مع قلة حيلته وضعف وسيلته عند فراق ليلى ، بحال قطاة علق جناحها بشرك وهي تحاول عبثا الفكاك منه :

كان القلب ليلة قيل يغدي بليلى العامرية او يراح
قطاة غرها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح (٣٣)

والمجنون ،وهو في حالته التي وصفها ، ان شابه القطاة الما وحيرة وقلقا ، فهو يخالفها من حيث كونه راضيا بل ومستزيدا لما هو فيه . فقد ذكر ان اباه اخذه الى الكعبة يوما وطلب منه ان يدعو الله كي ينسيه ذكر ليلى ، وجعله يمسك استار الكعبة وقال له : قل اللهم انسني ذكرها وامح من قلبي حبها . فقال المجنون :

اللهم اجمعني بها وارزقني حبها ، وزدني بها كلفا ، وفيها تلفا .(٣٤)

ويصف لنا ابن الاحنف جفاءه الفراش وليله الذي يمضيه بين الحسرة والعبرة اذ يقول :

تجافى مرفقاي عن الرقاد كان به منابت للقتاد
وباتت تمطر العبرات عيني وعين الدمع تنبع من فؤادي(٣٥)

ويؤكد الشاعر لحبيبته ان صبوته اعظم من صبوة الذين تقدموه من العشاق ، وان حبه اياها فوق حب جميل بثينة ، فيقول في هذا :

ما ان صبا مثلي جميل فاعلمي حقا ولا المقتول عروة اذ صبا
لا ولا مثلي المرقش اذ هوى اسماء للحين المحتم والقضا(٣٦)

اما ابن زيدون فيصف لنا في نونيته الشهيرة لواعج الشوق والالم البعد ، ويصور ما كان من نعيم ، وكيف استبدل ذلك النعيم اسى ودموعا ، فهو يقول :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الاسى لولا تاسينا

---

(٢٤) Ibid . , 66 .
(٢٥) Tbid ., 73 .
(٢٦) Tbid . , 31 .
(٢٧) Newcombe , op . cit ., 67 .
(٢٨) القالي ، المصدر المذكور ، ١ ، ٣١٧ .
(٢٩) ديوان جميل بثينة ، ٥١ .
(٣٠) ديوان جميل بثينة ، ٨٧ .
(٣١) الانطاكي ، المصدر المذكور ، ٢ ، ٥٧ .
(٣٢) ديوان جميل بثينة ، ٣٦ .
(٣٣) الاصفهاني ، ٢ ، ٥ ، الانطاكي ، ٢ ، ٦٧ .
(٣٤) الانطاكي ، ٢ ، ٧٠ .
(٣٥) ديوان ابن الاحنف ، ٩٧ .
(٣٦) ديوان ابن الاحنف ، ١٥ .

يا جنة الخلد ابدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوماوغسلينا (٣٧)

والشاعر يؤكد للحبيبة ان اساه وطول همه وسواد ليله لم تكن لتثنيه لحظة عن حبها ، او تجعله يتطلع الى سلوى او بديل ، فيقول :

اما هواك فلم نعدل بمنهله شربا وان كان يروينا فيظمينا
لم نجف افق جمال انت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا (٣٨)

ومن ظريف ما يحكى عن العشاق الذين يأبون السلو ، ويستزيدون من الم الحب وعذابه ، قصة يرويها لنا ابن حزم عن احد معارفه ، فيقول :

« ولقد علمت ان فتى من بعض معارفي قد حل به الحب وتورط في حبائله ، فاضر به الوجد ، وانضجه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء الى الله عز وجل في كشف ما به ، ولا ينطق بها لسانه، وما كان دعاؤه الا بالوصل والتمكن ممن يحب على عظيم بلائه وطويل همه ، فما الظن بسقيم ولا يريد فقد سقمه ؟ ولقد جالسته يوما ، فرأيت من اكبابه وسوء حاله واطراقه ما اساءني . فقلت له في بعض قولي : فرج الله عنك ، فرأيت اثر الكراهية في وجهه لما قلت . »(٣٩)

ان العاشق الذي يقاسي من الحب والشوق والحرمان ما يقاسيه ، فلا يستطيع او لا يريد عزاء ولا بديلا عن حبيبته ، ذلك العاشق الذي تتملكه فكرة واحدة وصورة واحدة ، سرعان ما يفقد توازنه الفكري ويصاب بالذهول والبلبلة والارتباك . يقول برنارد في هذا المعنى :

انا مرتبك الفكر ، مبلبل العقل ، ذلك بسبب الحب الذي يلازمني ويوثقني ، ويملك عناني في كل مكان اتوجه اليه . (٤٠)

ويستطرد برنارد فيصور لنا حالة الشرود والذهول التي هو فيها فيقول :

اواه ! سيقتلني الارتباك والذهول ، حتى لاخشى جادا ان يحملني اللصوص ويبعدوني عن داري فلا ادري ما هم فاعلون . (٤١)

اما جوسر فيصور لنا الحالة التي يعاني منها تروبلس ، ويخبرنا عن ملازمة عقله فكرة واحدة وتركيزه عليها وحدها في كل اوقاته وحيثما يتوجه ، تلك الفكرة هي حبه كرسيدا :

But were he fer or ner , I dar sey this :
By nyght or day , for wisdon or folye ,
His herte , which that is h's brestes ye ,
Was ay on hire
(I , 452 - 55)

وتبلغ الحال بالعاشق الى ما يشبه الجنون ، اذ يندفع الى غرفته ، فينطرح ارضا لاطما صدره بجمع يده ، وضاربا الحائط براسه ، تماما كما يفعل المجنون :

Right so gan he about the Chamber sterte ,
Smytyng his brests ay with his fistes smerte .
His hed to the wal , his body to the grounde
Ful ofte he swapte , heymselven to confounde .
(IV , 241 - 44)

ان جنون تروبلس هذا ليس بالظاهرة الغريبة على العشاق،فقد كان عرفا سائدا انذاك ان يمرض العاشق او يموت او يهيم على وجهه مجنونا من اجل الحب . تلك الظاهرة تفشت في اوروبا وعكسها ادب القرن الحادي عشر الميلادي وما تلاه . فان ترستان حين فقد الامل بلقاء حبيبته ايسولت ، هام على وجهه في الغابات يفترش الارض ويلتحف السماء ، ويأكل الحشيش والاوراق . اما الحبيبة ايسولت فقد اعترفت ان زوجها وحبيبها كليهما لم يحصلا منها سوى حمى في العظام . وحين سمعت بموت ترستان عافت ملكها وتاجها وهرعت الى الغابة فرمت بنفسها فوق جسده الهامد وفارقت الحياة . وقد علق الكابتن ارثر حين سماعه النبأ قائلا : « ادفنوهما معا ، ان كانا قد ارتكبا خطيئة فانهما احبا حبا عظيما ، وهما الان روحان في دنياالحب . (٤٢)

اما في دنيا العرب فقد عرفت مثل تلك الظاهرة قبل ذلك التاريخ بعدة قرون . وأخبار العشاق الذين مرضوا وماتوا او جنوا اكثر من ان يحصيها كتاب . ويذكر ان عروة بن الزبير قال لرجل من بني عذرة : « يا هذا ، بحق اقول لكم انكم ارق الناس قلوبا » .فقال العذري: « نعم ، والله ، لقد تركت بالحي ثلاثين قد خامرهم السل وما بهم داء الا الحب».(٤٣) ومن مشاهير العشاق الذين نذكرهم بهذا الخصوص عروة بن حزام . احب عروة عفراء فاخذه الهلاس ، وقالوا به جنة.فاخذوه الى عرّاف اليمامة وعراف حجر لمعالجته ، وفي ذلك يقول عروة ذاكرا انصراف فكره الى عفراء وعبث محاولة علاجه :

وقد تركتني لا اعي لمحدث
حديثا وان ناجيته ونجاني
جعلت لعرّاف اليمامة حكمه
وعراف حجر ان هما شفياني
فما تركا من حيلة يعرفانها
ولا شربة الا وقد سقياني
وقالا : شفاك الله ، والله ما لنا
بما ضمنت منك الضلوع يدان

وما زال هذا امره حتى قضى ، وما زالت عفراء تندبه حتى ماتت كما اسلفنا . (٤٤) اما اخبار ابن ذريح فتنبيء ان اشتداد شوقه وملازمة هذا الشوق والحب اياه قد اديا الى مرض الم به فالزمه الوساد واختلال العقل ، وفي ذلك يقول مخاطبا نفسه :

بانت لبينى فانت اليوم متبول
والراي عندك بعد الحزم مخبول (٤٥)

اما جميل فهو لا يستطيع الصبر والتمهل عن بثينة التي سلبته عقله كما يقول :

يقولون مهلا يا جميل وانني
لاقسم مالي عن بثينة من مهل
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلي (٤٦)

ومات جميل من تباريح الحب وقسوة الحرمان . اما المجنون ، فسواء أكان عاشقا واحدا معينا هو قيس بن الملوح العامري ،ام كان

---

(٣٧) ديوان ابن زيدون ، ٩٢ ـ ٩٤ .
(٣٨) ديوان ابن زيدون ، ٩٥ .
(٣٩) ابن حزم ، ١٠ .
(٤٠) Bernard , op . cit ., 88.
(٤١) Ibid . , 155 .
(٤٢) Dodd , op . cit . 187 . See also , J. Masefield Tristan and Isolt , 114 - 133 .
(٤٣) السراج ، المصدر المذكور ،١٣٠ ـ ٤٢ ، ابن قتيبة،١ ،٥٢٠، الانطاكي ، ٢،٦٢ ـ ١٢١ .
(٤٤) الاصفهاني ، ٢٠ ، ٣٦٧ ـ ٣٧٧ ، ابن قتيبة ، ٢ ، ٥١٩ ـ ٥٢٤ .
(٤٥) الاصفهاني اخبار ابن ذريح ، ٢٢٨ .
(٤٦) ديوان جميل بثينة ، ٧٧ ، الاصفهاني ٧ ، ١٣٩ وما بعده.

اسما مستعارا او منتحلا لشعراء اخرين رموا بالعشق والجنون، فان في اخباره واشعاره ما يؤكد لنا ان السل والشرود والجنون في الحب لم تكن امورا عارضة ، وانما كانت ظاهرة سائدة يرويها الرواة ، ويعرفها الثقاة ، ويتناقلها الناس انذاك . والمجنون يذكر لنا السبب الذي من اجله سموه مجنونا فيقول :

يسمونني المجنون حين يرونني
نعم ، بي من ليلى الغداة جنون .

ويقول في مكان اخر :

يهوي بقلبي حديث النفس نحوكم
حتى يقول جليسي انت مخبول

وينسيه الهوى نفسه ، فيذهل حتى عن واجبه نحو ربه ولم يعد يتذكر نظام صلاته ، حيث يقول :

اصلي فلا ادري اذا ما ذكرتها
اثنتين صليت العشا ام ثمانيا

وينتهي به الامر الى ترك صلاته واهله وحيه والهيام على وجهه في الصحراء مع الوحش ، لا يأكل الا ما ينبت في البرية من بقل، ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها . وجعل يهيم حتى يبلغ حدود الشام ، فان صادف من يحدثهعن ليلى ، ثاب اليه عقله وسأله عن نجد .(٤٧)

ان المحن والمصائب التي اتينا على ذكرها لم تكن كل دنيا الحب ، بل هناك من المتع واللذات والمسرات ما يعمر تلك الدنيا ويحيل اساها غبطة ودموعها بسمات وجحيمها فردوسا . اما متع الحب ومباهجه فتتمثل في الامال الحلوة والوعود المشتهاة ، وفي الرسل والوسطاء الذين ينقلون الاحاديث ويعقدون المواعيد ، واخيرا في اللقاء وهو غاية المتمني . هذه المتع والمباهج ـ وان كانت عظيمة ، الا انها تفتقر الى الاساس الذي يجعلها كاملة ، ذلك انها تفتقر الى الامان . فالعاشق خائف في كل حين ، وخوفه ناجم من عاملين : اما العامل الاول الذي ينتقص من كمال سعادة المحبين فهو خوف العاشق الدائم من الوشاة والرقباء والحساد والنمامين وامثالهم . وقد نتج من هذا الخوف مبدأ السرية في الحب . وهذا المبدأ يمكن العشاق من تحاشي الالسن المسمومة . والعامل الثاني الذي يعجز العشاق عن تلافيه هو كون سعادتهم في الحب سعادة دنيوية ارضية ، وكل ما هو ارضي ودنيوي فهو صائرحتما الى الزوال . تلك الافكار والاراء والمفاهيم كلها وردت في التراث الاوروبي تماما كما وردت في التراث العربي من قبله .

ان العاشق الذي يقاسي مايقاسيه في سبيل الحب حزنا وسقما وتسهيدا على الرغم مما هو فيه ، ليس ببائس . فهو يحتمل الم البعد آملا اللقاء ، ويتجلد حين الهجر مترجيا الوصل ، وبين هذا وذاك يتوسل بشتى الوسائل التي تدنيه من امله وتيسر له الطريق الى ما ينشده . فهذا التروبادور برنارد يخبرنا انه متجلد صابر في انتظار تحقيق الامل المنشود :

لست مبتهجا ولا مسرورا ، بل انا اقاسي عذاب الموت ،
ولكني مع ذلك اتجلد على امل ان صبري لا بد معقب مزجا . (٤٨)

وينصح جوسر ترويلس ، على لسان صديقه الوفي باندر ، قائلا له : اصبر ، فمن صبر ظفر :

« Men seyn , The suffrant overcomith . »
(IV , 1585)

ويضع الشاعر الانكليزي المذكور رسولا بين المحبين له من المزايا ما يجب توفر مثلها فيمن يقوم بمثل هذه المهام ويسميه باندر . اما فضيلة باندر فهي موضع شك وريبة من قبل نقاد جوسر . واما مزاياه الاخرى فمتفق عليها من قبلهم ، اذ انه سريع البديهة ، حافظ لاسرار العشاق ، مرح ، مخلص لصاحبه ، متجاوب معه الى حد ذرف الدموع قبله . هو شخص مثير للاعجاب طورا وللسخرية طورا اخر .هذا الشخص مهد الطريق لاتصال الحبيبين وهيا لهما فرص اللقاء بعد ان كان ذلك يبدو مستحيلا .(٤٩)

واننا اذ نحول ابصارنا الى الادب العربي نجد تلك الاراء نفسها . فالعاشق المعذب المحروم ليس ببائس . والمجنون يخبرنا ان بشاشات الامل تبعثه الى الحياة بعثا حين يقتله اليأس :

القى من اليأس ثارات فتقتلني
وللرجاء بشاشات فتحييني

ويقول في مكان اخر :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان جهد الظن ان لا تلاقيا (٥٠)

وجميل يفني العمر انتظارا لليلة يبيتها بوادي القرى قريبا من بثينة ، وهو مطمئن لعلمه الا مستحيل فيهذه الدنيا حيث يقول :

وافنيت عمري في انتظاري وعيدها
وابليت فيها الدهر وهو جديد
الا ليت شعري هل ابيتن ليلة
بوادي القرى اني اذن لسعيد
وقد تلتقي الاشتات بعد تفرق
وقدتدرك الحاجات وهي بعيد (٥١)

اما ابن زيدون فقد تناول المعنى نفسه ، اذ ينبئنا انه يتجمل على الرغم من نفاد صبره ، وذلك انتظارا لوصل الحبيبة الذيلا بد ان يناله يوما ، يقول ابن زيدون مخاطبا حبيبته :

أيها البدر الذي يملأ عيني من تأمل
حمل القلب تباريح التجني فتحمل
ليس لي صبر جميل غير اني اتجمل
ثم لا يأس فكم قد نيل امر لم يؤمل (٥٢)

وحين نقرأ حديث الوسطاء والرسل ، نعرف منه ان العشاق كانوا يتبادلون الرسائل ويعقدون المواعيد مع الحبيبات ، واكثر ما يكون ذلك عن طريق خاتم الحب الذي يرسله الى الحبيبة مع امتها او راعيها او راعيتها ، وتكون الرسالة احيانا مع صديق او صديقة او احد اقرباء الحبيب او الحبيبة . (٥٣) فكثير صاحب جميل وراويته كان يقوم بدور الوساطة بين جميل وبثينة ، وله قصة طريفة تدل على حذقه وحذره في اداء رسائل جميل ، وتنبىء من جهة اخرى عن ذكاء الحبيبة ودقة ادراكها ما يعنيه الرسول . ويروي لنا صاحب الاغاني قصة وساطة كثير بين جميل وبثينة كما يلي :

« قال كثير : لقيني جميل مرة فسألني : من اين اقبلت ؟ قلت : من عند ابي الحبيبة ـ اعني بثينة ـ فقال : والى اين تمضي ؟ قلت:

---

(٤٧) الاصفهاني ١ ، ٥٩ ، البغدادي ١ ، ٣٧٤ وما بعده ٢ ، ١٧٠ وما بعده ، الانطاكي ٢ ، ٥٣ وما بعده .

(٤٨) Bernard , op . cit . 67

(٤٩) Brower , Chaucer , 99 - 100 . see also , Lewis op . cit . 190 - 91 . Kirby , op . cit . 121 - 192 .

(٥٠) ابن قتيبة ، المصدر المذكور ٢ ، ٤٧٠ ، الاصفهاني ٢ ، ٣١.

(٥١) ديوان جميل بثينة ، ٣١ ـ ٣٢ .

(٥٢) « ابن زيدون » ٦٠ .

(٥٣) انظر اخبار العشاق في المصادر اعلاه .

الى الحبيبة ـ اعني عزة، فقال : لا بد من ان ترجع عود له على بدئك . فستجد لي موعدا من بثينة ، فقلت : عهدي بها الساعة ، وانا استحي ان ارجع ، فقال : لا بد من ذلك ، فقلت له : فمتى عهدك ببثينة ؟ فقال:لقيتها في اول الصيد ، وقد فعت سحابة باسفل وادي الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، وتحدثنا حتى غابت الشمس وافترقنا ، وما وجدت بعدها احدا امنه فأرسله اليها . فقال له كثير : فهل لك في ان آتي الحي فأنزع بأبيات من شعر اذكر فيها هذه العلامة ان لم اقدر على الخلو بها ؟ قال جميل : ذلك هو الصواب . ثم خرج كثير حتى اناخ بدار بثينة فقال له ابوها : ما ردك ؟ قال : ثلاثة ابيات عرضت لي فاحببت ان اعرضها عليك ، قال هاتها ،قال كثير فانشدته وبثينة تسمع :

فقلت لها يا عز ارسل صاحبي
اليك رسولا والموكل مرسل
بان تجعلي بيني وبينك موعدا
وان تأمريني ما الذي فيه افعل
واخر عهدي منك يوم لقيتني
باسفل وادي الدوم والثوب يغسل

قال كثير : فالتفتت بثينة الى جاريتها وقالت لها : ابغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له ، فقال كثير : انا اعجل من ذلك ، وراح الى جميل فاخبره ،فقال له جميل : الموعد الدومات. وخرج كثير وجميل حتى اتيا الدومات ، وجاءت بثينة ومن معها ، فما برحوا حتى برق الصبح .فكان كثير يقول : ما رأيت مجلسا قط احسن من ذلك ولا مثل علم ضميراحدهما بضمير الاخر » .(٥٤)

ويذكر ابن حزم صفات الرسول في فصل يفرده من كتابه ويطلق عليه (باب السفير) فيقول : ان الرسول دليل عقل المحب ، وبيده حياته وموته وستره وفضيحته ، فينبغي ان يكون حاذقا يكتفي بالاشارة ويقرطس عن الغائب ، ويحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما اعقله باعثه ، ويؤدي الى الذي ارسله كل ما يشاهد على وجهه ،كاتما للاسرار ، حافظا للعهد ، وفيا ، قنوعا وناصحا . (٥٥)

حين تكون الامور قد سويت من قبل الرسول ، يتم لقاء مختلس بين العاشقين . اما جمال هذا اللقاء وبهجة المحبين وغبطتهم به فامور يعجز اللسان والقلم عن وصفها . ذلك ما يقوله العشاق الذين حدثونا عن سعادتهم فبالغوا ، كما فعلوا حين وصفوا شقاءهم. فبرنارد يغني من فرط هنائه ،ويخيل اليه ان سعادته بلقاء الحبيبة قد غيرت الكون ففاض جمالا وسحرا ،وان نفسه قد حلقت في سماء كلها جمال وسعادة ومجد . يقول التروبادور في هذا المعنى :

قلبي يفيض غبطة ، حتى ليخيل لي ان الاشياء كلها قد تغيرت ، فالثلج بدا لي كزهور بيض وحمر وصفر ، والريح والمطر يجلبان لي السعد ، فوافي سمت ، ومجدي وصل السماء ، قلبي يفيض غبطة وسرورا وحلاوة ،فيريني الثلوج زهورا والجليد عشبا اخضر .

اما جوسر فيعترف بعجزه ،بل وعجز كل حكماء العالم عن وصف نعيم الوصل وجنة اللقاء ،فهو يقول :

This is no litel thyng of for to seye .
This passeth every wit for to devyse .
For ech of hem gan itheres lust obeye .
Felicite , which that thise Clerches wise
Comenden so , ne may nought writen be with inke .
This passeth al that herte may bethynke .
(III , 1686 - 92)

هذه السعادة التي ينعم بها المحبون ليست طويلة الامد ، لان الحساد والوشاة يتربصون الفرص بالمحبين ، فيفرقون بينهم ويقطعون حبال الوصال . يخبرنا برنارد ان المفترين قد ابعدوه عن حبيبته ، وبعد بان يكون حذرا عند زيارتها ، وذلك تفاديا لهؤلاء الوشاة وحفاظا على سمعة الحبيبة ،يقول برنارد :

الوشاة المفترون ابعدوني عنك ، انهم يراقبون ويتجسسون ، لكنهم لا يعلمون اننا نلتقي بالفكر دائما . سأراك سرا لئلا يفتضح الامر فانا اخشى الاساءة الى سمعتك .

وجوسر يخبرنا ان نعيم الحب لا يدوم ، فالليل كاتم الاسرار يمر سريعا ، ويطلع الفجر ومعه الوشاة والحساد ،الامر الذي يدعو صديق ترويلس الى تنبيهه لمغادرة الدار وقطع سويعات اللقاء الحلوة التي كان يتمتع بها مع الحبيبة ، يقول جوسر :

. . . If ye be wise ,
Swouneth naught now , lest more folk arise .
(III , 1189 - 20)

ثم تسأل الحبيبة الاسراع بترك الدار ، فالفجر قد اطل وسيفتضح امر لقائهما ويكون ضياع سمعتها :

For tyme it is to fyse and hennes go ,
Or ellis I am lost for evere mo !
(III , 142 - 25)

ويتالم الشاعر لفراق الحبيبين وزوال النعمة التي عاشاها زمنا، ويخبرنا ان لا عيب في سرور اللقاء والوصال الا كونه سرورا عابرا ولا دوام لنعيم على هذه الارض اذ هو وقتي وعابر . يقول جوسر :

That Joie is transitorie
As every Joie of wordly thyng not flee .
(III , 826 - 27)

ثم يعود الشاعر الانكليزي في مكان اخر فيشبه الحياة الدنيا بزهرة جميلة سرعان ما تذوي وتذروها الريح ،اذ يقول :

This world that passeth soon as flowers faire .
(C , 1840)

يستطيع القارىء ان يجد في ادبنا العربي افكارا مشابهة لجميع الفكر التي عرضناها . اما عن لقاء الحبيبة وحلاوة وصلها فيقول جميل مستعيدا ذكرياته :

فيا ليت شعري هل ابيتن ليلة
كليلتنا حتى يثرى ساطع الفجر
تجود علينا بالحديث وتارة
تجود علينابالرضاب من الثغر (٥٨)

ويمضي جميل الليل مع الحبيبة يتحدثان ويرتشفان من كؤوس النعيم اصفاها ، حتى تتبين بثينة الصبح ، فترتاع ، وتقسم عليه ان يلقي نفسه تحت النضد ، لا خوفا على نفسه ،بل حذرا على بثينة من الفضيحة .(٥٩) ويصف جميل في ابيات ثلاثة سروره بلقاء

---

(٥٤) الاصفهاني ٧ ، ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(٥٥) ابن حزم ، ٣١ ـ ٣٢ .
(٥٨) ديوان جميل بثينة ، ٤٥ .
(٥٩) الاصفهاني ٧ ، ١٦١ ـ ١٦٢ .

الحبيبة ، وسعي الوشاة بينهما ،وحال الدنيا ، فيقول :

وكنا قبل ان يظهر النوى
بانعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا
بطون الهوى مقلوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام ودنا
ولكنما الدنيا متاع غرور (٦٠)

ويستطرد الشاعر مؤكدا حفظه السر حتى الموت، فيقول :

لو ان امرأ اخفى الهوى عن ضميره
لمت ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سالقى الله والنفس لم تبح
بسرك والمستخبرون كثير (٦١)

وغبطة اللقاء اذ تحيل الجليد عشبا ووردا في نظر التروبادور، فان تلك الغبطة تفعل ما هو اعجب من ذلك واطرف ، وذلك فيما يصوره لنا الشاعر العربي بقوله :

تكاد يدي تندى اذا ما لمستها
وينبت في اطرافها الورق الخضر (٦٢)

ولقاء الحبيبة هو الخلد ، ولكن لا خلود متيسر في هذه الدنيا كما يقول كثير :

هي الخلد ما دامت لاهلك جارة
وهل دام في الدنيا لنفس خلودها (٦٣)

ويوطن كثير نفسه حين فقده عزة لعلمه ان ميعة الحب وضراءه كلاهما لا بد زائل :

ولم يلق انسان من الحب ميعة
تعم ولا عمياء الا تجلت (٦٤)

وهو كغيره يؤكد حفظه السر فيقول :

واني لما استودعتني من امانة
اذا ضاعت الاسرار للسر دافن (٦٥)

اما ابن ذريح فيتحدث عن سعي الوشاة وخيانة الزمان ، اذ ان كليهما تسبب في فقده لبنى ، ومع ذلك فهو الفتى الكتوم لاسرار الحب:

سعى الدهر والواشون بيني وبينها
فقطع حبل الوصل وهو وثيق
واكتم اسرار الهوى فاميتها
اذا باح مزاح بهن يروق (٦٦)

وابن الاحنف انما يهجر الندامى حذرا من الكأس التي تفلت عقال اللسان فتفضح امر الحب ، يقول الشاعر :

هجرت الندامى خشية السكر انما
يضيع الفتى اسراره حين يسكر (٦٧)

اما ابن حزم فيصف لنا ملذات اللقاء ومباهج الوصل ، ويقرنها بلذائذ الجنة لولا كونها ارضية ووقتية ، فيقول في هذا :

ومن جوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع ومرتبة سرية ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ،بل هو الحياة المجددة ، والعيش السني والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة ، ولولا ان الدنيا دار ممر ومحنة وكدر والجنة دار جزاء وامان من المكاره ، لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه، وهو كمال الاماني ومنتهى الاراجي ، ولقد جربت اللذات على تصرفها، وادركت الحظوظ على اختلافها فما الدنو من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ولا الاوبة بعد طول الغيبة ، ولا الامن بعد الخوف ، من الموقع في النفس ما للوصل .(٦٨) .

ويفرد ابن حزم في كتابه بابا يسميه (باب طي السر) يؤكد فيه على الكتمان ، ويستنكر في الباب الذي يليه اذاعة اسرار الحب ويستهجن نشرها . (٦٩)

ان الذي ذكرناه من شوق الرجل الى المراة الجميلة ورغبته في لقائها ووصالها ، وبؤسه وسقمه وجنونه اذا هو حرم منها ، ثم تنعمه وتلذذه كلما حظي بها ، لمظاهر تمثل استجابة الرجل لحب المراة استجابة حسية دنيوية . وقد ذكرنا في مستهل هذا الفصل ان الرجل يستجيب للحب جسديا كما يستجيب له معنويا وروحيا. اما الجانب الروحي او المثالي فهو المتمثل بسمو روح العاشق واتسامه بالفضيلة والخلق الكريم ، وبتحليق فكره في دنيا الخيال مبدعا وخلاقا . ومن العجيب ان الجانب الروحي ماثل وموجود في جميع الاشعار والاخبار التي قيلت في موضوع الحب ، جنبا الى جنب مع الجانب الجسدي ، وذلك ما اضفى على الحب صفة التناقض التي يتصف بها كما اسلفنا . ان العاشق الذي يلح شوقا الى لقاء الحبيبة ، وتقتله الرغبة في التلذذ بنوالها ووصالها ، هو نفسه العاشق الصابر القنوع الراضي باقل من القليل . فترويض النفس بقهر الشره والطمع فيها ، سمة يتسم بها المحبون الذين عرفناهم في التراث الاوروبي وتراثنا معا ، الامر الذي جعل اندريس يثبته كقاعدة اساسية من قواعد الحب فيقول :« تجنب الطمع كوباء مميت وعانق ضده » .(٧٠) هذا وان ترويض النفس وحملها على الرضى بالقليل يجعل لهذا القليل من الاثر في نفس العاشق مثل ما للكثير منه . فبرنارد يصف لنا شعور الغبطة والبهجة الذي يغمره ،لمجرد نظرة من الحبيبة ، وصفا يذكرنا بسروره ساعة الوصال ،فيقول:

حين تسنح الفرصة فتوليني نظرة واحدة فقط ،لا اعي الا وانا في غمرة سروري ، اهتز طربا ونشوة . (٧١)

وارنوت دي مارويل يكتفي بنظرة الى ارض الحبيبة ، وبخيال شخصها الجميل النبيل يتامله وهو بعيد عنها ، فيقول :

اديري عيني يا سيدتي النبيلة الى ارضك ، واتطلع الى حيث تسكنين ، وحين لا استطيع القرب منك ، اكتفي بخيالك يسكن قلبي ، وبذكرى شخصك الحلو الظريف تملأ افكاري .(٧٢)

وترويلس لا يطلب من الحبيبة الا ان تتلطف بنظرة من عينيها الجميلتين ، وفي ذلك ما يكفيه :

With the streams of your eyen Cleere
Ye wolde somtyme frendly on me see .
(111 , 130 - 31)

ويسأل العاشق الجوسري صاحبه مرافقته الى بيت الحبيبة بعد رحيلها ، ليرى المعبد الذي فارقه القديس :

---

(٦٠) ديوان جميل بثينة ،٥١ .
(٦١) ديوان جميل بثينة ، ٥١ .
(٦٢) البغدادي ، المصدر المذكور ، ٥٥٣ ،الاصفهاني ٢ ، ١١ .
(٦٣) ديوان كثير عزة ، ٢٠٠ .
(٦٤) ديوان كثير عزة ، ٩٧ .
(٦٥ ديوان كثير عزة ، ٩٧ .
(٦٦) الاصفهاني ٨ ، ٢٤٣ .
(٦٧) ديوان ابن الاحنف ، ١٤٥ .
(٦٨) ابن حزم ، ٥٦ .
(٦٩) ـ ابن حزم ، ٣٣ ـ ٣٨ .
(٧٠) Andreas , op . cit . , 81 .
(٧١) Bernard , op . cit . , 119 .
Kirby , op . cit . , 293 .

As to we sen the palais of Criseyde .
For syn we yet may have namore fests ,
So lat us sen hir paleys atte leeste .
(V , 523 - 25)

ويخبرنا اندريس في كتابه عن عاشق يؤكد ان مجرد انعكاس منظر بيت الحبيبة في الهواء يزوده بقوة تحفزه على الحياة وتملأ فؤاده بمتع الحب الجميلة .(٧٣)

اما الادب العربي فيكشف لنا عن آراء وافكار مماثلة لتلك التي عرضناها . ويبلغ جميل غاية في الاكتفاء بالقليل والغنى الروحي تجعله يرضى من الحبيبة بالقليل الذي يسر له الواشي وتقرّ به بلابله يقول جميل :

واني لارضى من بثينة بالذي
لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبالا استطيع وبالمنى
وبالامل المرجو قد خاب امله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي
اواخره لا نلتقي واوائله (٧٤)

ويتحدث ابن ذريح عما يفنيه عن وصل لبنى التي حرمت عليه، فيذكر لقاء الروحين عبر النسائم ، وعند افول الشمس ، اذ يلفهما سكون الليل وحين يوحد بينهما هدوء الظهيرة ، فالعاشقان ليسا بمفترقين ما داما يعيشان على ارض واحدة ، ويتطلعان الى سماء واحدة . يقول قيس بن ذريح:

فان تك لبنى قد اتى دون قربها
حجاب منيع ما اليه سبيل
فان نسيم الجو يجمع بيننا
ونبصر قرن الشمس حين تزول
وارواحنا بالليل في الحي تلتقي
ونعلم انا بالنهار نقيل
وتجمعنا الارض القرار وفوقنا
سماء نرى فيها النجوم تجول (٧٥)

ويمر المجنون على ديار ليلى فيقبلهاحين يمر عليه تقبيل ساكنيها حيث يقول :

امرّ على الديار ديار ليلى
اقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا (٧٦)

والعاشقالعربي يذكر الحبيبة فيعتريه للذكرى من الفرح والنشوة ما يعتري العصفور حين تبله قطرات الغيث بعد طول ظمأ فيالصحراء:

واني لتعروني لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر (٧٧)

اما ابن الاحنف فيرضى بما لا يرضي ، وترتاح نفسه حتى الى المواعيد الممطولة فيقول :

واني ليرضيني الذي ليس بالرضا
وتقنعنفسي بالمواعيد والمطل (٧٨)

وهو يستنشق النسائم تاتيه من ارضها فيستشعر بردا وراحة :

اذا استقبلتني الريح من نحو ارضها
تنشقتها حتى ترف الخياشم (٧٩)

وابن زيدون يرضى منالحبيبة بالطيف الساري وبالذكرى العابرة فهو يقول :

اولي وفاء وان لم تبذلي صلة
فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا (٨٠)

هذا الترويض على القناعة او كف النفس عن الشره والطمع لما يرهف العاشق ويجعله يهتز لخاطرة وينتشي لنسمة عابرة كما رأينا. وهناك فوق هذا فضائل اخرى تحمل نفس العاشق واهمها الاخلاص للحبيبة ، والوفاء لها والتفاني في سبيلها . هذه افكار واردة في كلا التراثين الاوربي والعربي وملموسة فيالاقوال والاشعار والاخبار التي وصلتنا منهما . فاندريس يؤكد ويوصي العاشق بالاخلاصلحبيبته، ويقول في احدى قواعد الحب مخاطبا العاشق :

احفظ نفسك عفيفا من اجل تلك التي تحبها .

ويقول في مكان اخر متناولا المعنى نفسه :

لا يستطيع المرء ان يرتبط بغرامين في آن واحد . (٨١)

اما برنارد فيخبرنا انه قاطع جميع النساء من اجل المراة التي يحبها ، وعاش مخلصا لها وحدها ،فهو يقول :

لقد قاطعت جميع النساء من اجلها ، فمنها وحدها يمكن ان اتلقى مسراتي . (٨٢)

ويؤكد الشاعر نفسه وفاءه اللامتناهي للحبيبة ، فيقول انه يحبها ما دام حيا ، وسيرافقه حبها الى ما بعد موته،وهذا قوله:

هلا يخطف الموت ارواح هؤلاء الذين يتجنون فيقولون ان حبي اياك سيفارقني بعد مفارقتي الحياة ولا يرافقني بعد ان اموت واوارى في التراب . (٨٣)

ويخبرنا بالازول انه مخلص لحبيبته اخلاصا يحمله على ان يفضل رفضها على كل ما يمكن ان يلقاه من قبول الاخريات. فهو يقول :

افضل رفضك اللطيف على جميع هبات الاخريات ، واؤكد لك بانني لا استبدل لاءك بنعم السيدات جميعهن . (٨٤)

ويؤكد تروبلس بطل الحب في قصة جوسر ، انه ما حاد عن الاخلاص لكرسيدا منذ ان رآها لاول مرة ، وسيخلص لها الحب حتى الموت . يكتب جوسر بهذا المعنى فيقول :

Now God to whom ther nys no Cause Ywrye ,
Me glade , as wys I nevere unto Criseyde .
Syn thinke day I sauagh hire first with ye ,
Was fals , ne nevere shal til I dye .
(IV , 1655 - 58)

ويبرهن العاشق في تلك القصة ان وعده صحيح ثابت ، فهو لم يطلب بديلا عن حبيبته بعد رحيلها ،ولم يجد ما ينسيه حبها او يسليه عنها فيكل نساء الارض ولهوها وملذاتها. يقول تروبلسلصديقه الذي نصحه باستبدال حبيبته باخرى في محاولة لتخفيفالام الحب :

---

(٧٣) Andreas , 69 .
(٧٤) ديوان جميل بثينة ، ٩٤ .
(٧٥) الاصفهاني ، ٨ ، ٢٣٩ .
(٧٦) البغدادي ٢ ، ١٧٠ ـ ١٧٢ .
(٧٧) ديوان مجنون ليلى ، ١٠٩ ، البغدادي ١ ، ٥٥٣.
(٧٨) ديوان ابن الاحنف ، ٢٣٦ .
(٧٩) ديوان ابن الاحنف ، ٢٧٢ .
(٨٠) « ابن زيدون » ٩٥ .
(٨١) Andreas , op . cit . , 81 , 184 .
(٨٢) Bernard , 150 .
(٨٣) Ibid . , 159 .
(٨٤) Newcombe , op . cit . , 81 .

Thow biddest me I shoulde love another
Al fressly newe , and lat Criseyde go !
It lith not in my power , legue brother .
And though I might , I wolde not do so .
(IV , 456 - 457)

اما اخلاص العاشق العربي للحبيبة ووفاؤه لها وتفانيه في سبيلها فامور يكشف عنها التراث ، ومنه نعلم ان ابن ذريح حين اشار عليه قومه بالزواج من امراة جميلة تنسيه لبنى اجابهم قائلا :

لقد خفت ان لا تقنع النفس بعدها
بشيء من الدنيا وان كان «قنعا
وازجر عنها النفس اذ حيل دونها
وتأبى اليها النفس الا تطلعا

ونعلم ايضا ان ابا قيس هذا وعشيرته اقسموا عليه بالمسير في احياء العرب والنزول عليهم فلعل عينه تقع على امراة تعجبه . فسار حتى نزل بحي بني فزارة ، ولم يلبث احدهم ان عرف قيسا ،ورغب في مصاهرته ،فلامه الحي وقالوا له :« قد خشينا ان يصير علينا فعلك سبة » . فقال اخو الفتاة : « دعوني ،ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام » . فلم يزل به حتى اجابه قيس وعقد الصهر بينه وبين اخته ، وقيل ان تلك الفتاة كانت حسناء كالبدر ليلة تمامه، ولكن قيسا لم يهش لها ، ولا دنا منها ولا خاطبها ولا نظر اليها . وهو يصف حاله بعد فراق لبنى قائلا :

واني وان ازمعت عنها تجلدا
على العهد فيما بيننا لمقيم
الى الله اشكو فقد لبنى كما شكا
الى الله فقد الوالدين يتيم (٨٥)

وعروة العذري يؤكد لنا وحدانية الحبيبة وعدم اشراكه في الحب «نذ ان عرف الحب والى ما لا نهاية له ، فهو يقول :

هواها هوى لم يعرف القلب غيره
فليس له قبل وليس له بعد (٨٦)

ومجنون ليلى اذ يحاول اهله اقناعه بالعدول عن ليلى الىغيرها، يقول لهم ان لا دواء منها الا بها :

تداويت من ليلى بليلىمنالهوى
كما يتداوىشارب الخمر بالخمر (٨٧)

واخبار ابن معمر تنبيء عن اخلاصه ووفائهلحب بثينة وعهدها حتى الموت . فقد ذكر ان نساء الحي مرة جعلن يقرعنه وينصحنه بالانصراف عن بثينة الى غيرها ، فكان جميل يردهن معتذرا ان لا مكان في قلبه لغيرها ، ويقول فيهذا :

فلرب عارضة علينا وصلها
بالجد تخلطه بقول الهازل
فاجبتها في القول بعد تستر
حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في قلبي كقدر قلامة
فضلا، وصلتك او اتتك رسائلي (٨٨)

ويخبرنا ابن معمر ان حبهبثينة هو حب ازلي ،كان ولا زال ، وسوف يخلد حتى بعد ان تفارق روحه الجسد ، فيقول :

تعلق روحي روحها قبل خلقنا
ومن بعد «ا كنا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فاصبح ناميا
وليس اذا متنا بمنتقض العهد
ولكنه باق على كل حالة
وزائرنا فيظلمة القبر واللحد (٨٩)

وعلى الرغم «ما يذكره الرواة عن عدم اخلاص كثير الحب لعزة وحدها ، فان الشاعر يؤكد ـ كما فعل غيره ـ انه هجر نساءالارض كلهن في سبيل عزة التي ضنت عليه بوصلها ،حيث يقول :

فما انصفت اما النساء فبغضت
الي ، واما بالنوال فضنت (٩٠)

ويذكر لنا ابن الاحنف ان وجه الحبيبة لم يغب عن قلبه «نذ ان رآها ، وانها ملء قلبه منذ ذلك اليوم ،اذ يقول :

وما غاب عني وجهها مذ رأيتها
ولا مال بي عنها الى غيرها قلبي (٩١)

ويؤكد الشاعر نفسه اخلاصه للحبيبة في حالي رضاها وهجرها فيقول :

فؤادي وعيني حافظان لغيبها
على كل حال من رضاء ومن عتب (٩٢)

وحين نقرأ ابن زيدون نجده مفضلا جور الحبيبة وهجرها على وصل غيرها «ن النساء ،اذ يقول :

لو كان قولك مت ما كان ردي لا
ياجائر الحكم افديه بمن عدلا (٩٣)

وهو ـ مذ غابت عنه ـ لم يعتنق رأيا ولا دينا سوى حبها والوفاء لها ، حيث يقول :

لم نعتنق بعدكم الا الوفاء لكم
رأيا ولم نتقلد غيره دينا (٩٤)

هذا الرجل الذي عرفناه حتى الان هو عاشق صادق الحب،عف قادر على ضبط نزواته وقمع شهواته ،وهو مخلص للمراة التيهواها، يجلها حاضرة ، ويحترم ارادتها ، يحفظ غيبها ويكتم سرها ويبذل النفس والنفيس في سبيل مرضاتها ، وفوق هذا كله يعرف ما يقوله لها ويحسن القول . هذا العاشق رجل لا يستطيع الرجل العادي ان يكونه ،فهو انسان اصطفاه الحب وحمله بالشهامة والخلق النبيل والمروءة لكونه اهلا لذلك .فقلبه شاعري مرهف خلق لكي يستجيب للحب فينصهر بناره المقدسة ، ويشع نورا سماويا يعجز ذوو القلوب الغليظة عن ادراك فحواه ، ذلك الاشعاع السماوي الخالد على الايام يتمثل بالشعر الذي غناه المحبوب في الغرب وفي دنيا العرب ، وما زالت الاجيال تغنيه بعدهم . فالتروبادورز الذين نعرفهم كلهم شعراء خلفوا تراثا اقتفاه الشعراء الغزلون في معظم اقطار اوربا بما فيها انكلترا ،حتى ان الكتاب الانكليز يعتقدون ان الباحث في تاريخ الشعر الانكليزي لا بد له من ان يتخذ شعر التروبادورزمنطلقا له والا بقي بحثه غير مكتمل . (٩٥) لقد خلد التروبادورز لانهم غنوا ، وغنوا لانهم احبوا بصدق ، ولانهم خلقوا لكي يحبوا ولكي

(٨٥) الاصفهاني ٨ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ،ابن داود ،المصدرالمذكور، ١٦٧ .
(٨٦) الانطاكي ١ ، ٣٩ .
(٨٧) ديوان مجنون ليلى ، ٩٢ .
(٨٨) الاصفهاني ٧ ، ١٦٠ .
(٨٩) ديوان مجنون ليلى ، ٨٠ .
(٩٠) ديوان كثير عزة ، ٩٦ .
(٩١) ديوان ابن الاحنف ، ٤٢ .
(٩٢) ديوان ابن الاحنف ، ٤٦ .
(٩٣) ديوان ابن زيدون ، ١٦٤ .
(٩٤) ديوان ابن زيدون ، ٩١ .
(٩٥) Chaytor , The Troubaudours and England, 135

يغنوا . يقول برنارد :

لا جدوى في غناء لا ينبعث من القلب ،ولا يكون القلب ينبوع غناء ما لم يرهفه الحب الصادق . (٩٦)

وبلازول يغني ما دام يشعر ان اغانيه ستبهج ماريا الجميلة وتنشيها ، فهو يبعث اليها باغنيته قائلا :

ايتها الاغنية ! قولي لحبيبتي ماريا ، اني سأغنيها ما دمت اعرف ان اغاني مصدر سرور ونشوة لها .

وترويلس حالما يشعر بسهام الحب تصوب الى قلبه الرقيق ، يهرع الى غرفة منامه ليغني اسوة بالعشاق الاخرين :

And on a song anon - right to bygyne ,
(I , 989)

وبعد رحيل كرسيدا ينصرف العاشق الى نظم الشعر طلبا للعزاء من الام الحب والفراق :

And made a song of words but a fewe ,
Somewhat his woful herte for to delight .
(V , 633 - 34)

وسلوك ترويلس في كل مراحل غرامه يدل على جدارته بحب عظيم كهذا الحب الذي لا يزدهر وينمو الا في الافئدة النبيلة التي خلقت له ، كما يقول جوسر :

Pleasance of love , O goodly dabonaire
In gentil hertes ay redy to repaire ,
(III , 4 - 5)

ويستطرد جوسر فيقول ان الحب الصحيح هو الظرف :

That loveth wel menth but gentilesse
(III , 1148)

واننا اذ نعود الى تراثنا العربي نجد فيه افكارا ووقائع مماثلة لما ذكرنا . فصاحب كتاب الزهرة يذكر ان « الحب شيء يختص به قوم برقة طبائعهم وتآلف ارواحهم ، فمن كان مثلهم يعذلهم، ومن خرج عن حدهم هان قوله » .(٩٨) وذكر ان ابن نوفل سئل مرة : « هل يسلم احد من العشق ؟ فقال : « نعم ، الجلف الجافي الذي ليس له فضل ولا عنده فهم،اما من في طبعه ادنى ظرف ، او ممه دمائةاهل الحجاز ، وظرف اهل العراق فهيهات » . (٩٩) وقلوب العشاق رقيقة كأنها قلوب طير تنمات كما ينمات الملح في الماء ، وهم ينظرون الى جمال محاجر اعين لا ينظر اليها الاخرون ، (١٠٠) ويستجيبون للجمال استجابة لا يقدر عليها غيرهم ، ويتحدثون عنه بلغة يعجز عن مثلها سواهم . واستجابتهم للحب وسلوكهم حيال المرأة وتعبيرهم عن مشاعرهم كلها امور يفضلون بها الناس ويتفاضلون بها فيما بينهم . فقد قيل ان الفرزدق وجميل بن معمر وجرير ونصيب وكثير اجتمعوا في موسم من المواسم ، ومضوا الى منزل سكينة بنت الحسين ، وهي المرأة المرموقة على المستويين الاجتماعي والادبي انذاك ، وانشدوها بعض ما قالوا في المرأة والحب ،ففضلت قول جميل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
واي جهاد غيرهن اريد
لكل حديث عندهن بشاشة
وكل قتيل بينهن شهيد
وافضل اياي وافضل مشهدي
اذا هيج بي يوما وهن قعود

وقالت سكينة لجميل حين انشد ابياته تلك : « اغزلت ،وكرمت، وعففت ، فانت الذي جعلت قتيلنا شهيدا ، وحديثنا بشاشة ،وافضل ايامك يوم تنوب عنا ، وتدافع ،ولم تعد ذلك الى قبيح . خذ الف الدرهم هذه وابسط لنا العذر ، وانت اشعرهم .»

وذكر انها استقبحت قول جرير حيث قال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

قالت له سكينة : «فما احسنت ولا اجملت ، ولا صنعت صنع الحر الكريم ، لاستر الله عليك كما هتكت سترك وسترها ، ما انت بكلف ، ولا شريف حين رددتها بعد هدوء العين ،وقد تجشمت هول الليل » (١٠١) .

هذه القصة تشير الى ان المرأة الحكم قد فضلت جميلا شاعرا ومحبا في وقت واحد ، والشعر والحب صنوان متلازمان . ويذكر العرب ان العشق هو الباعث على الغزل . (١٠٢) ويخبرنا الشعراء العشاق انفسهم ما يؤكد هذا القول . فجميل يذكر لنا انه انما ينظم الشعر من اجل ارضاء الحبيبة ، وهو يستوحيها المزيد،فيقول:

وقد قلت في حبي لكم وصبابتي
محاسن شعر ذكرهن يطول
فان لم يكن قولي رضاك فعلمي
هبوب الصبا يا بثن كيف اقول (١٠٣)

ويقول جميل في مكان اخر ان الشعر يأبى ان يطاوعه الا في موضوع واحد ، ذلك هو حبه بثينة :

اذا ما نظمت الشعر في غير ذكرها
ابي وابيها ـ ان يطاوعني شعري (١٠٤)

اما مجنون ليلى فيهرع الى قول الشعر طلبا للعزاء والراحة من بلاء الحب الذي هو فيه ، فيقول :

فما اشرف الايضاع الا صبابة
ولا انشد الاشعار الا تداويا (١٠٥)

وهو ان يحرم من ليلى، يجد عزاء في الدموع وفي القوافي اذ يقول :

فان تمنعوا ليلى وحسن حديثها
فلم تمنعوا عني البكا والقوافيا (١٠٦)

وكثير يعترف بان حبه عزة قد رفع ذكره وحسن شعره فقد قيل ان امرأة لقيته في بعض الطريق فقالت : «أانت كثير ؟ » قال :« نعم »،

---

(٩٦) Bernard , 81 .
(٩٧) Newcombe , 84 .
(٩٨) ابن داود ، ٤ .
(٩٩) ابن قيم الجوزية، ١٩٣ ، العسكري ١٣٨ ، مشارق انوار القلوب لابن الدباغ ، والانطاكي ١ ، ٦ .
(١٠٠) ابن قتيبة ١ ، ٣٤٠ .
(١٠١) السراج ٢ ، ٧٩ ـ ٨٢ .
(١٠٢) نهاية الادب للنويري ،٢ ، ١٢٥ .
(١٠٣) ديوان جميل بثينة ، ٨٣ .
(١٠٤) ديوان جميل بثينة ، ٤٥ .
(١٠٥) ديوان مجنون ليلى ، ٢٩٢ .
(١٠٦) ديوان مجنون ليلى ، ٢٩٣ .

سدلوى فيل

٣ قصائد

تواقت

الحب هنا مرمي فوق العتبة .
تهاونت قليلا ، واستحضرت الروح بآلية .
تدخل حدسي تحريفا
(هذا مألوف دوما)
حرنت جنينا يسبح في زاوية عصبية :
(ان احتاج الى ملاح امر مؤسف)
تهيأ صوتي لبكاء جذري (دون تصنع)
صوتي يتكون كالطحلب ،
صوتي يتموج خطافا ،
صوتي ..
همز جوادا وتفجر فوق العتبة .

* *

اكتشاف

كلماتك تتطاير ، ترتد ، كرات مطاطية .
طين في اذني ووجهي مغلق .
(لحظة أتشمم رائحة الزلزال أنوم نفسي مغناطيسيا)
اغوي طمعا جرحا ارعن سريا
لكن الصمت خبيث .
الدرب مقامرة وعرة ؟
(أشحذ تلف جناحي ، واحمل وجهك في عيني جفافا ، مجزرة نزقة)
الحب نواة معطوبة ؟
(تبقى احلامي تعويذة)
.. في باطن كفي اليسرى شامة
لم أرها من قبل .

* *

مسار

الجثة :
تتسلل ذاكرتي ، أفعى باردة ملساء :
(أتهجى خطواتي غافلة ، اتلمس نجما ، فلتة نور، قبرة ، تنزلق اللطمة فجأة : تتفرس عيناي فضولا فرحا اسود ، اجثو ، أدفن في بردى ميتا ، دمه في عنقي ، أدفع ديته وطنا ، يحمل وجهك ، يحمل أسماءك)
الكذبة :
وشمك سمتي
أحمله وهنا ،
وفصالك عمر يتبدد في الريح ، فراشات ميتة .
الضرورة :
العلق النهم يمص دمي .

باريس

قالت :« والله لقد سفل الله بك ، اذ جعلك لا تعرف الا بامرأة » ، قال كثير : « ما سفل الله بي ولكن رفع بها ذكري ، واشار بها امري ، واستحكم بها شعري ».

هؤلاء الشعراء العشاق ، العرب منهم والاوربيون ، يتشابهون جميعا بكون استجابتهم للحب ذات طبيعة متناقضة كما اسلفنا . فهم يحبون المرأة حبا حسيا يتمثل بانجذابهم نحو جمالها الجسدي، وما يترتب على ذلك من رغبة وشوق الى التمتع بذلك الجمال ،وغبطة ونشوة حين ينالون ، وحرقة ولوعة حين يحرمون . وهم في الوقت ذاته ، يتسامون بحبهم تساميا يمنح المجنون منهم سمة الموهوب الملهم الذي يرتل اياته الاخرون . لقد سمى التروبادورز سلوكهم هذا Courtesy او gentleness ولا ارى ما يوازي معنى هذين التعبيرين في تراثنا خيرا مما قالته السيدة سكينة واوجزته حين فضلت جميل بن معمر عاشقا وشاعرا :« لقد اغزلت وكرمت وعففت، فانت الذي جعلت قتيلنا شهيدا ، وحديثنا بشاشة، وافضل ايامك يوم تنوب فيه عنا وتدافع ،ولم تتعد ذلك الى قبيح » .

* * *

ان المقارنة التفصيلية التي عقدناها في بحثنا هذا بين التراثين الاوروبي والعربي ، لتشير الى التشابه الفكري بينهما في الامورالتي تخص الحب والمرأة ،وفي استجابة الرجل وموقفه من كليهما . هذا التشابه لا يمكن ان يكون عفويا او وليد المصادفات ،فنحن نعلم ان الادب العربي الذي عبر عن تلك الافكار كان سابقا للادب الاوربي الذي حواها ، وان وسائل الاتصال وطرق الاحتكاك المباشرة منها وغير المباشرة كانت متوفرة بين العالمين العربي والاوربي ، فليس بعيدا ان يتبنى الاوروبيون المثقفون للمعرفة والمتعطشون اليها انذاك، نقول ، ليس غريبا انيتبنى هؤلاء القوم افكار العرب واطوارهم مع الذي نعرفه من رقي العرب وتكامل حضارتهم على المستويات السياسية والاجتماعية والفكرية .وبعد ، فليس غريبا ان يكون حب التروبادورز صدى لحب العشاق العرب ،وان تكون اهاتهم وبسماتهم رجعا لاهات العذريين وهمسات قلوبهم .

بغداد

---

(١٠٧) ابن قتيبة ، ١ ، ٤١٥ .
(١٠٨) Valency , 35 .